حوليات آداب عين شمس (عدد خاص ٢٠١٧)
www.aafu.journals.ekb.eg//:http
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

سيمياء المرأة المحبوبة عند الشعراء الفرسان في العصر الجاهلي

عبد الحميد مصطفىَ مرتجي*

جامعة عين شمس– كلية الآداب – قسم اللغة العربية

المستخلص

كان للمرأة في العصر الجاهلي مكانة مميزة عكستها مرآة الأدب، فكان لها حضورها في شعر الشعراء عامة كما كان لها في شعر الفرسان مكانة مميزة ايضا، فقد تميزت المرأة بسمات خاصة في شعرهم.

يتناول الباحث في دراسته _ سيمياء المرأة المحبوبة في شعر الفرسان _ متناولا العلامات ذات الدلالات والسمات التي تداولها الفرسان في شعره والتي تشير إلى المرأة إشارات خاصة خصوصية لغتهم ومعجمهم الشعري، حيث كانت المرأة الشاهدة على بطولاتهم والشريكة والمحبوبة _ فقد شاركته الحضور المعنوي والمادي ثم يغامر من اجلها ويغامر بحبها فاحتلت مساحة كبيرة من حياتهم عكستها مرآة أشعارهم.

يحاول الباحث عبر المنهج السيميائي تتبع تلك العلامات التي أشارت للمرأة ويتناولها بالتحليل والدراسة محاولا فك شفراتها وكشف مكنوناتها في ظل ما يتيحه المنهج السيميائي وأدواته.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

تمهيد:

حضرت المرأة في حياة الفارس بقوة وحضور متميز، فالفارس ليس ذاك المقاتل الشرس فحسب، ولا المتوحش الفاقد للمساحة الشعورية التي تتعلق بالمرأة ولا غائب العاطفة ولكنه الفارس الذي لا تق حاجته للمرأة عن أي من الرجال، فهي بالنسبة له الواحة التي يستريح لها بعد عناء السفر وشظف القتال وقسوة المعارك. والأمة العربية اشتهرت بالحرب والقتال وسجلت أيامها التاريخية في حروب ذى قار وداحس والغبراء وحرب البسوس وكلاب أياما معروفة مشهورة في مقاتلة القبائل للحصول على المراعي أو المياه أوالصيد والقنص بسبب التنقل والبحث عن الكلاء والمعاش، وكانت المراءة لها باع طويل في ذلك. فقد أعز الرجل المراءة وأحبها وأنشد القصيد بذكرها شوقا ووقف على أطلالها يندب ويبكي ويتذكر ماضيه السعيد أو يخاطبها مفتخرا بشجاعته وكرمه وعالي مقامه ويشهدها على حسن أدائه ومحامده فهذا الشاعر الفارس يشهد زوجته على شجاعته وفروسيته وهاجما ومهاجما وعلى جده وقوته في الترحال والغارات وقطع القفار التي لم تطاءها قدم انسان وعلى حذقه لفنون الحرب والطعان في أشد المواقف وأحرج الأوقات، وذاك يبكي أيامها وآخر يتغنى بصحبتها ورفقتها.وتذكر كتب النقد وتاريخه أن عنترة الذي لم يشغل بال الباحثين العرب فحسب وإنما تعدّاه إلى الغربيين من المستعربين مثل (وليم جونس) الذي يُعد أوّل مستعرب أوربي ترجم معلّقة عنترة بن شداد، وأمّا المستعرب الانكليزي (دوسلين) فقد اهتم هو الآخر بشعر عنترة إلى جانب اهتمامه بالأدب العربي القديم، فأعطى دراسة لهذا الشاعر نُشرت في الصحيفة الآسيوية. ويدرج ضمن قائمة الباحثين الذين درسوا حياة هذا الشاعر هو الفرنسي (كوسان دوبير سفال) الذي اختص بدراسة قيّمة عن الأدب العربي عامّة والجاهلي خاصّة، فدروس شعر عنترة بن شداد دراسة مستفيضة وعميقة وأعجب بشمائل العرب والضيافة والفروسية لديهم .ولعلّ الأهم من بين هؤلاء الباحثين هو الأديب الفرنسي (لامرتين)، فقد حظي هذا الأديب باحترام المثقفين العرب، فقط ترك (لامرتين) كتباً قيّمة منها (رحلة إلى الشرق) الذي خصص فيه فصلين في شعر عنترة، فضلاً عن أفكاره.

ويبدو أن كتابه الذي ألفه ضمن سلسلة كتبه (حياة الرجال العظام) عن عنترة الأبرز بينهن لأننا نجده متأثراً بسيرة الشاعر إلى حدٍّ بعيد فقد وصفه بأنّه أحد أركان الحضارة حتّى أنّه قرَنَ سيرة (عنترة) وشعره بـ(هوميروس) و(فيرجيل) ، إن إحساس عنترة بالموت لا يجلله الخوف أو الرهبة، وهذا الإيقاع هنا سببه العلاقة العشقية المختلطة بالقيم والزمن، وفيها التأكيد على الثبات أمام الموت، واعتراف بحتميته في نفس الوقت الذي يوجه فيه الشاعر هذا إلى محبوبته.والإحساس بالموت إحساس فطري أحس به الإنسان العربي منذ عرف الحياة، فهم يتمادحون بالموت في القتال، ويتهاجون بالموت على الفراش حيث يقولون: «مات فلان حتف أنفه».

سمات المرأة المحبوبة:

فكأن عنترة يتقرب إلى حبيبته بدمه المسفوح فيقول:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل * مني وبيض الهند تقطر من دمي**
فوددت تقبيل السيوف لأنها * لمَعَتْ كبارق ثغرك المتبسم(١)**

فعنترة يملك مقومات الفروسية، من حذق بأمر الخيل، فضلا عن تلك العلاقة الإنسانية التي ربطت بينه وبين حصانه الأدهم، تلك العلاقة التي أثارت إعجاب النقاد، فكانت محاوراته لحصانه الأدهم من التعبير بحيث تمثل الفروسية التي تطمح إلى الاكتمال، فهي فروسية تترفق بذلك الفرس الذي أعيته معارك فارسه وجعلته يناجيه

ويشكو إليه. وهذه الفروسية أيضا هي ما دفعت عنترة إلى الاستبسال في أرض المعركة، فلا يفر، ولا يولي الأدبار، فهو بطل وفارس وقائد، فكيف يفر وهو.. أول ضارب بمهند.. وهو أول فارس!! ولعلنا نلحظ ما مفاده أن الشجاعة التي هي فخار كل عربي وحليلته والمرأة تشاركه ذلك كله، غنيا أو فقيرا ذا قبيل أو مفردا وإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة كاءنما ولدت معه وأنه شب عليها وتسري في دمه وكان من صفات العربي أنه يشجع ثم يشجع حتى يلقي نفسه في مهاوي الردى مختارا ونعود فنقول أن النساء كن يصحبن المقاتلين فهذا الفارس عمرو بن معد يكرب يقول لما راى النسوة يجرين خائفات فتوءثر الأرض الصلبة في أقدامهن وفيهن حبيبته لميس كالبدر وكشفت عن محاسن لم يرها من قبل فيها اشتدت عزيمته ولم ير بدا الا الهجوم على الاعداء ومنازلتهم.

لما رايت نسائنا يفحصن المعزاء شدا * وبدت لميس كأنها بدر السماء إذا تبدى**

نازلت كبشهم ولم أرمن نزال الكبش * وبدت محاسنها التي تخفى وكأن الأمر جدا**[٢]

وهذا الشاعرالفارس عامر بن الطفيل يزدهي ببسالته وشجاعته وشعره لزوجته يقول-:

طلقت إن لم تسالي أي فارس * حليلك اذ لاقى صداء وخثعما**

أكر عليهم دعلجا ولبانة * إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحما**[٣]

وشعر الغزل عند الفرسان مقصود لذاته، فهو ليس بالتمهيد الصناعي ولا لاستثارة انتباه السامع بل يتغزل الشاعر لينفس عن نفسه بعض تباريح الحب، ويستميل المحبوبة بسحر المقال كما يستميلها بحسن الأحدوثة وتقدير الأبطال له، وقد اتسم شعر الفرسان وعلى رأسهم عنترة بالسمة الأخلاقية المتعالية على الشهوة والحس وبالمترفعة عن الفحش والتفحش، كما كثرت فيه الشكوى والنجوى وحديث النفس، والتحدث عن الشوق، والترفع عن المجون واللهو، إنه حب ناضج دمث يسري في النفس ويريح فؤادا أضنته الحياة العسكرية والاجتماعية .

عبيلة هذا در نظم نظمته * وأنت له سلك وحسن مبهج**[٤]

ويقول في مقطوعة ثانية :

سلي يا ابنة الأعمام عني وقد أتت * قبائلُ كلبٍ معْ غني وعامر**

تموج كموج البحر تحت غمامة * قد انتسجت من وقع ضربِ الحوافر**

فولَّوا سِراعاً والقنا في ظُهورهمْ * تَشُكُّ الكُلى بين الحَشا والخَواصر**

وبالسَّيفِ قد خَلّفت في القفْر * منهم عِظاماً ولحماً للنُّسور الكواسر**

وما راعَ قومي غيرُ قولي ابــن ظــالمٍ * وكـــان خبيثـــاً قولـــهُ قـــول مـــاكر**

بغى وادّعى أنْ ليس في الأرض مِثْلُــهُ * فلمـــا التَقينـــا بـــانَ فَخـــرُ المُفـــاخر**

أحبُّ بني عبس ولـــو هـــدروا دمـــى * محبة عَبدٍ صـــادِق القـــولِ صـــابر(٥)**

ولعل الجمع بين الغزل والفخر، وبين البطولة العسكرية والحب لهو مفارقـــة ذات إيحاء دلالي عميق، فالفارس ليس وحشا كاسرا، ولا يعيش على الدماء والأشلاء، فكثيـــرا ما جمع الفرسان بين المفخرتين، على أن تنبع التجربة من باعث واحـــد فباعـــث الحـــب والفخر واحد في نفس الإنسان، فالحب يبعث على إبراز الزهو والفخر، وفخـــر الشـــاعر بمعاركه يرسخ محبة المحبوبة له، ويلقي بظلاله على فتوته ورجولته وشـــغفه بالحمايـــة وقدرته على الحفاظ على محبوبته وجيرانه وقومه، وتلك معـــايير الرجولـــة فـــي كافـــة العصور والأزمان، فيتحدث الشاعر عن بلائه الحربي، عله يلج من لعالم المحبوبة ويدخل لها من أوسع أبواب الإعجاب، ويفوز بقلب محبوبته، فالحب مـــروءة ورجولـــة وعطـــاء وحماية، والحرب وسيلة تحقق ذلك واقعا ومن هنا يتضح اتحـــاد الباعـــث بـــين الحـــب والحرب .

" ولأن الفخر إن هو إلا تزكية للغزل وتأييد وزلفي للحبيب، ولأن الفتوة فـــي هـــذا الحب السامي محققة، تحقيق البأس في الحرب، واعتزاز الفارس بشجاعته محقـــق، فـــلا غرو أن يتداعيا ويتوافيا "

عجبتْ عبيلةُ منْ فتىً متبـــذل * عاري الأشاجع شاحِبٍ كالمُنْصُلِ**

شَعْثِ المَفارق مُـــنهج سِـــرْبالُهُ * لم يـــدَّهنْ حـــولاً ولـــم يترجـــل**

لايكتسى الأَّ الحديـــدَ إذا اكتســـى * وكذلكَ كـــلُّ مغـــاور مستبســـل**

قد طالَ ما لبسَ الحديـــدَ فإنَّمـــا * صدأ الحديدِ بجلـــدهِ لـــم يغســـل**

فتضـــاحَكتْ عَجبـــاً وقالَـــتْ: * يا فتى لا خير فيكَ كأنها لم تحفل**

فعجبتُ منها حين زَلّـــتْ عينُهـــا * لا خير فيكَ كأنهـــا لـــم تحفـــل**

لا تَصْرْميني يا عُبيـــلُ وَرَاجعـــي * فيَّ البصيرةَ نظـــرةَ المتأمـــل**

فلربَّ أملـــحَ منـــكِ دلاّ فـــاعلمي * وأقرَّ في الدّنيا لعـــينِ المُجْتلـــي**

وَصَلَتْ حبالي بالذي أنـــا أهلُـــهُ * من ودها وأنا رخـــيٌّ المطـــول**

يا عَبلُ كم من غمرةٍ زُهاءَهـــا * بالنَّفْسِ مَا كَادتْ لَعمرك تَنْجَلـــي**

فِيها لَوامعُ لوْ شهدت زْهاءَها * بالنَّفْسِ مَا كَادتْ لَعمرك تَنْجَلي**

فالصورة التي يقدمها عنترة لنفسه والتي يريد أن يثير بها محبوبته هي صورة الفارس المحب . ولكن هذه الصورة لاتحقق تأثيرها المنشود في نفس عبلة ولهذا فإنه يعجب منها عندما تضاحكت وقالت لاخير فيك، وهو يستنكر كلامها بقوله " كأن لم تحفل " ويصور انصرافها عنه من خلال استفهام استنكاري " كيف زلت عينها "؟ وهو فعل يجسد الخطأ يرى في محبوبته وقعت فيه، ثم يأتي وصفه لنفسه بأنه ماجد طلق اليدين شمردل ليكشف عن فداحة زلتها، تكشف هذه الألفاظ عن غضب وإنكار عنترة ثم تجده يعود مقهورا مهددا بالحرمان، فيعود لاستجداء المحبوبة، واستعطافها ألا تصرمه، وأن تعيد النظر إليه والتواصل معه، فهو الذي تحاول الفتيات أن يواصلنه، وهو لا يقبل بذلك . يقول عنترة :

يا عَبلَ كَم مِن غَمرَةٍ باشَرتُه * بِالنَفسِ ما كادَت لَعَمرُكِ تَنجَلي**

فيها لَوامِعُ لَو شَهِدتِ زُهائَه * لَسَلَوتِ بَعدَ تَخَضُّبٍ وَتَكَحُّلِ**

إمّا تَرَيني قَد نَحَلتُ وَمَن * يَكُن غَرَضاً لِأطرافِ الأسِنّةِ يَنحَلِ**

فَلَرُبَّ أبلَجَ مِثلِ بَعلِكِ بادِنٍ * ضَخمٍ عَلى ظَهرِ الجَوادِ مُهَيَّلِ**

غادَرتُهُ مُتَعَفِّراً أوصالُهُ * وَالقَومُ بَينَ مُجَرِّحٍ وَمُجَدَّلِ**

فيهُم أخو ثِقَةٍ يُضارِبُ نازِل * بِالمَشرَفِيِّ وَفارِسٌ لَم يَنزِلِ**

وَرِماحُنا تَكِفُ النَجيعَ صُدورُه * وَسُيوفُنا تَخلي الرِقابَ فَتَختَلي**

وَالهامُ تَندُرُ بِالصَعيدِ كَأنّم * تُلقي السُيوفُ بِها رُؤوسَ الحَنظَلِ**

وَلَقد لَقيتُ المَوتَ يَومَ لَقيتُهُ * مُتَسَربِلاً وَالسَيفُ لَم يَتَسَربَلِ**

فَرَأيتُنا ما بَينَنا مِن حاجِزٍ * إلّا المِجَنّ وَنَصلُ أبيَضَ مِفصَلِ**

ذَكَرٍ أشُقٌّ بِهِ الجَماجِمَ في الوَغى * وَأقولُ لا تُقطَع يَمينُ الصَيقَلِ**[٦]

معاناة عنترة لا شك ضاهرة واضحة وقد حاول عنتره اقناعها بفروسيته علها ترجع عن مقاطعته، ولكن برغم ذلك لم يفلح . ويقول عنترة في مقطوعة تظهر مدى ولعه بالمرأة وذكره بطولاته لها في مقطوعته(نسيم العذارى):

أرضُ الشَّربَّةِ ثُرْبُها كالعَنْبَرِ * ونسيمها يسري بمسكٍ أذفرِ**

وقبابها تحوي بدوراً طلعاً * من كلّ فاتنةٍ بطرفٍ أحورِ**

يـــا عَبـــلَ حُبُـــكِ ســـالبٌ ألْبابَنـــا *** وعقولنـــا فتعطفـــي لا تهجـــري

يـــا عَبـــلَ لـــولاَ أنْ أرَاكِ بنـــاظري *** مـــا كنـــتُ ألقـــي كـــلَّ صـــعبٍ منكـــر

يا عَبلَ كـــمْ مـــنْ غمْـــرةٍ باشَـــرْتها *** بمثقَّـــفٍ صـــلْبِ القـــوائمِ أسْـــمرِ

فأتَيْتها والشَّـــمْسُ فـــي كَبـــدِ السَّـــما *** والقـــومْ بـــينَ مقـــدمٍ ومـــؤخر

ضـــجوا فصـــحتُ علـــيهم فتجمعـــوا *** وَدَنَـــا إلـــيَّ خمـــيسُ ذاكَ العســـكرِ

فشـــككتُ هـــذا بالقنـــا وعلـــوتُ ذا *** مَـــعَ ذاكَ بالـــذَّكَر الحســـامِ الأبتـــر

وقصـــدْتُ قائِـــدهمْ قطعْـــتُ وَريـــدهُ *** وَقتلْـــتُ مـــنْهُم كـــلَّ قـــرْمٍ أكبَـــرْ

تركُوا اللَّبُوسَ مَـــع الســـلاح هَزيمـــة *** يجرون فـــي عـــرض الفـــلاة المقفـــر

ونشـــرتُ رايـــات المذلـــة فـــوقهم *** وقســـمت ســـلبهم لكـــلّ غضـــنفر

ورَجَعْتُ عَنْهُمْ لم يكنْ قصْدي ســـوى *** ذكـــرٍ يـــدومُ إلـــى أوان المحشـــر

مـــنْ لـــم يَعـــشْ مُتَعـــزّزاً بســـنانه *** سَـــيمُوتُ مَـــوت الـــذُّلّ بـــين المعْشَـــر

لا بـــدَّ للعمـــر النفـــيس مـــن الفنـــا *** فاصرف زمانك فـــي الأعـــزّ الأفْخـــر[٧]

إن استحضار المحبوبة لتشهد بطولات الفرسان واضح في شعرهم، وهـذا عنتـرة يربط بين حبه لعبلة وبين ما يلاقيه من قتال ونزال حيث يعترف عنترة بحبه ويظهر هـذه المرة بطولة حية في الميدان ويذكر الأفعال الدالة " فشككت، وقصدت، وعلوت، وقتلـت " ويظهر عنتر قانون المعيشة

في الشطر من لم يعش متعززا ولربما كان باعث عنترة خاصاً في الـتخلص مـن العبودية أو ما طلب منه لقاء زواجه بعبلة ولعل للعنوان دلالته وسمته الواضحة إن نظرة منها تحيي حشاشة قلب الشاعر، وحقها ظهر الجواد في إشارة للمهر الذي يريده منه والد عبلة ولعل ذلك يؤكده المعنى الوارد في مقطوعة أخرى.

تُعَيّرُنـــي العِـــدا بسَـــوادِ جِلـــدي *** وَبَـــيضُ خَصـــائِلي تَمحـــو السَـــوادا

سَلي يا عَبلَ قومَكِ عَن فُعالي وَمَن حَضَرَ الوَقيعَةَ وَالطِرادا

***

وَرَدتُ الحَربَ وَالأبطالُ حَولي تَهُزُّ أكُفُّها السُمرَ الصِعادا[٨]

***

وفي مقطوعة أخرى تكون المرأة عنده موطن الشكوى والحنين لتكشف عن قلب رقيق راغب في الحياة، يأنس بمحبوبته ويأوي إليها شاكياً هم الحياة إن الفارس الشاعر ليأوي إلى محبوبته ويبث همه ويشكو ألم القتال وألم المجتمع ــ يهرب إليها في هجير الصحراء وهجير المعارك، وعندما تلوح له فرصة للشكوى في مجتمعه قاس ملتهب مليء بالقتال والدم والرعب.

الا يا عبلة قد زاد التصابي ولج اليوم قومك في عذابي

***

وظل هواك ينمو كل يوم كما ينمو مشيبي في شبابي

***

عتبت صروف الدهر فيك حتى فنيت وابك العمر في عذاب[٩]

***

وفي هذا دليل واضح على مكانة المرأة في حياة الفارس، والذي ينمو فيه حبها بصورة طردية كلما اشتد العذاب والقسوة.

يا عبل كم من غمرة باشرتها بمثقف صلب القوام أسمر[١٠]

***

ويأتي كلامه أشد رقة وعذوبة ونقاء وهي يبث بالشكوى لمحبوبته:

وَلاقيتُ العِدا وَحَفِظتُ قوماً أضاعوني وَلَم يَرعَوا جَنابي

***

سَلي يا عَبلَ عَنّا يَومَ زُرنا قبائِلَ عامِرٍ وَبَني كِلابِ

***

وَكَم مِن فارسٍ خَلَّيتُ مُلقىً خَضيبَ الراحَتَين بلا خِضابِ

***

يُحَرِّكُ رجلَهُ رُعباً وَفيهِ سِنانُ الرمحِ يَلمَعُ كَالشِهابِ

***

قَتَلنا مِنهُمُ مائَتَين حُرّاً وَألفاً في الشِعابِ وَفي الهِضابِ[١١]

***

إن المرأة شريكة الشاعر حينما يبتعد عنه قومه ويتنكرون له ـــ لكنه وفي منتهى الوفاء لهم ولشرفهم ولسؤددهم وظفرهم.

واستحضار الشاعر للبطولات في حضرة المحبوبة دليل واضح على كبير مكانتها في نفسه وعلى نقاء صورته في قلبها ـــ ذاك الفارس المغوار الوفي الشجاع القادر على الوفاء لقومه والبقاء في مكانة الفارس القاهر للعدو.

وكمْ من فارس خلّيتُ مُلقى * خضيب الراحتين بلا خضابِ**(١٢)

اشارة واضحة للنيل من الفارس واستبدال الخضاب بالدماء، إن باب الغزليات في شعر عنترة ليكاد يسفر عن شاعر مرهف الحس شفيف الكلمات، صاحب عاطفة طاغية، وقلب كبير محب، مولع بحب محبوبته، فتارة يصفها وتارة يغامر بالحديث معها، وتارة يلهوا ويداعب خياله باللهو معها، بحيث مثلت هذه المقطوعة واحدة غناء بالعواطف زاخرة بالمعاني عارمة بالحب طاهرة صادقة لا تكاد تصدق أنها تصدر عن فارس، بل عن فتى مغرم محب وله ــ له من الصدق العاطفي والخيال الواسع ما له.

وينادي عنترة محبوبته في نداء ندي جميل يحمل علامات المحبة والوداد:

ألا يا عبل ضيعتِ العُهودا * وأمسَى حبكِ الماضي صُدُودا**

وما زالَ الشبابُ ولا اكتهلنا * ولا أبْلى الزَّمانُ لنا جديدا**

وما زالتْ صوارمنا حداداً * تَقُدُّ بها أنامِلُنا الحديدا**

سَلي عنَّا الفزاريّينَ لمَّا * شَفيْنَا مِنْ فُوَارسها الكُبُودا**(١٣)

ولعبلة حضور في حياة الفارس عند صبرها وعند ابتسامتها ـــ فهو يرقب ذلك فيه عن كثب، ويرصد كل ما يصدر عنها بكل حرص وحذق.

ضَحِكَت عُبَيلةُ إذ رَأتني عاريا * خَلَقَ القميص وَساعِدي مَخدوشُ**

لا تَضحَكي مِنّي عُبَيلةُ وَاعجَبي * مِنّي إذا اِلتَقت عَليّ جُيوشُ**

وَرَأيتِ رُمحي في القُلوبِ مُحَكّم * وَعَليهِ مِن فَيض الدِماءِ نُقوشُ**

ألقى صُدورَ الخَيلِ وَهيَ عَوابِسٌ * وَأنا ضَحوكٌ نَحوَها وَبَشوشُ**(١٤)

سيتعرض الفارس اسلحته لتشهد عبلة على قوته وما يفعل بالعدو بالسلاح الذي يحمله وبصور الخيول وهي عابسة ساهمة، في علامة مكررة على ابتداء ذكر الفرسان للخيول في إشارة حربية واضحة.

هذا ولم يلحظ الباحث من ذكر للمرأة في ديوان عامر بن الطفيل، وعند دريد كانت المرأة مطلة أو مهجورة كزوجته.

أما عروة بن الورد:
فيقول في مقطوعة

أقِلِّـــي عَلَـــيّ اللّـــوْمَ يَابْنَـــةَ مُنْـــذِرٍ *** وَنَامِي فَإِنْ لَمْ تَشْتَهِي النّوْمَ فَاسْهَرِي

ذَرِينِـــي وَنَفْسِـــي أمّ حَسّـــانَ إنّنِـــي *** بِهَا قَبْلَ أنْ لاَ أمْلِكَ الْبَيْـعَ مُشْـتَرِي

أحَادِيـــثُ تَبْقَـــى وَالْفَتَـــى غَيْـــرُ خَالِـــدٍ *** إذَا هُوَ أمْسَى هَامَـــةً تَحْـتَ صُـبّرِ

تُجَـــاوِبُ أحْجَـــارَ الكِنَـــاسِ وَتَشْـــتَكِي *** إلَـــى كُـــلّ مَعْـــرُوفٍ تَـــرَاهُ وَمُنْكَـــرِ

ذَرِينِـــي أطُـــوّفْ فِـــي الْـــبِلادِ لَعَلّنِـــي *** أُخَلِّيكِ أوْ أُغْنِيكِ عَنْ سُـــوءِ مَحْضَـــرِ

فَـــإنْ فُـــازَ سَـــهْمٌ لِلْمَنِيّـــةِ لَـــمْ أكُـــنْ *** جَزُوعًا وَهَلْ عَنْ ذَاكَ مِـــنْ مُتَـــأخّرِ

وَإنْ فُـــازَ سَـــهْمِي كَفّكُـــمْ عَـــنْ مَقَاعِـــدٍ *** لَكُمْ خَلْـــفَ أدْبَـــارِ البُيُـــوتِ ومَنْظَـــرِ

تَقُـــولُ لَـــكَ الـــوَيْلاتُ هَـــلْ أنْـــتَ تَـــارِكٌ *** ضُـــبُوءًا برَجْـــلٍ تَـــارةً وبِمِنْسَـــرِ

وَمُسْـــتَثْبِتٌ فِـــي مَالِـــكَ الْعَـــامَ إنّنِـــي *** أرَاكَ عَلَـــى أقْتَـــادِ صَـــرْمَاءَ مُـــذْكِرِ

فَجُـــوعٍ بِهَـــا لِلصّـــالِحِينَ مَزَلّـــةٍ *** مَخُوفٍ رِدَاهَـــا أنْ تُصِـــيبَكَ فَاحْـــذَرِ

أبَى الْخَفْضَ مَنْ يَغْشَاكِ مِـــنْ ذِي قَرَابَـــةٍ *** وَمِنْ كُلّ سَوْدَاءِ الْمَعَاصِـــمِ تَعتَـــرِي

وَمُسْـــتَهْنِئٍ زَيْـــدٌ أبُـــوهُ فَـــلاَ أرَى *** لَهُ مَدْفَعًا فَـــاقْنَيْ حَيَـــاءَكِ وَاصْـــبِرِي

لَحَـــى اللهُ صُـــعْلُوكًا إذَا جَـــنّ لَيْلُـــهُ *** مَضَى فِي المُشَاشِ آلِفًا كُـــلّ مَجْـــزَرِ

يَعُـــدُّ الْغِنَـــى مِـــنْ دَهْـــرِهِ كُـــلّ لَيْلَـــةٍ *** أصَابَ قِرَاهَـــا مِـــنْ صَـــدِيقٍ مُيَسّـــرِ

قَلِيـــلَ التّمَـــاسِ المَـــالِ إلاّ لِنَفْسِـــهِ *** إذَا هو أضْـــحَى كَـــالعَرِيشِ المُجَـــوّرِ

يَنَـــامُ عِشَـــاءً ثُـــمّ يُصْـــبِحُ قَاعِـــدًا *** يَحُتُّ الحَصَى عَـــنْ جَنْبِـــهِ المُتَعَفّـــرِ

يُعِـــينُ نِسَـــاءَ الحَـــيّ مَـــا يَسْـــتَعِنّهُ *** فَيُضْحِي طَلِيحًـــا كَـــالبَعِيرِ المُحَسّـــرِ

وَلِلّـــهِ صُـــعْلُوكٌ صَـــفِيحَةُ وَجْهِـــهِ *** كَضَـــوْءِ شِـــهَابِ الْقَـــابِسِ المُتَنَـــوّرِ

مُطِـــلاً عَلَـــى أعْدَائِـــهِ يَزْجُرُونَـــهُ *** بِسَـــاحَتِهِمْ زَجْـــرَ المَنِـــيحِ المُشَـــهّرِ

وَإنْ بَعِـــدُوا لاَ يَـــأمَنُونَ اقتِرَابَـــهُ *** تَشَـــوُّفَ أهْـــلِ الغَائِـــبِ المُتَنَظِّـــرِ

فـــذلكَ إنْ يَلْـــقَ المَنِيّـــةَ يَلْقهـــا *** حَميـدًا وَإنْ يَسْـتَغْنِ يَوْمًـا فأجْـدِرِ

أتَهْلِـــكُ مُعْـــتَمٌّ وَزَيْـــدٌ ولَـــمْ أقُـــمْ *** عَلَى نَدَبٍ يَوْمًا وَلِي نَفْسُ مُخْطِـرِ

سَـيُقْزِعُ بَعْـدَ اليَـأسِ مَـنْ لاَ يَخافُنَـا *** كَوَاسِعُ فِي أُخْـرَى السّـوَامِ المُنفّـرِ

نُطَـــاعِنُ عَنْهـــا أوّلَ القَـــوْمِ بالقَنَـــا *** وَبِـيضٍ خِفَـافٍ وَقْعُهُـنّ مُشَـهّرُ

وَيَوْمًـــا عَلَـــى غَـــارَاتِ نَجْـــدٍ وأهْلِـــهِ *** ويَومًا بِـأرْضٍ ذَاتِ شَـثٍّ وَعَرْعَـرِ

يُنَاقِلْنَ بالشُّـمْطِ الكِـرَامِ أولِـي النُّهَـى *** نِقَابَ الحِجَازِ فِي السّـرِيحِ المُسَـيّرِ

يُـــرِيحُ عَلَـــيّ اللّيْـــلُ أضْـــيَافَ مَاجِـــدٍ *** كَرِيمٍ ومَالِي سَارِحًا مَـالُ مُقْتِـرِ[١٥]

وفي النص من الدلالات المتضمنة لمعاني الأنفة والعزة ما يستدعي الوقوف، فينادي المرأة بداية باسم أبيها ثم بكنيتها، وفي ذلك تعظيم لشأنها وإنزال لها منزلة عالية، ولعل البيت الثالث يشير بوضوح لرغبة الفارس أن تبقى ذكراه خالة بأعماله لا بأملاكه، فالشاعر حريص عبى أن تبقى زوجته في غنى وعزة لذا فقط آثر التعب على الراحة والمشقة على الدعة والسكون، فهو الذي يصارع البقاء بين سهام المنية وسهام العدو، ويمتدح ويثني على نفسه، فهو الصعلوك الذي لا يعرف الهدوء، مخاطبا بذلك زوجته ضمنا بما يفعل من أجلها، ويجمع المال لرضاها، وهو بذلك يلاقي أشد أنواع العناء والمشقة

ويقول أيضا :

تحن إلـى سـلمى بحـر بلادهـا *** وأنت عليها بـالملا كنـت أقـدر

تحِلّ بـوادٍ، مـن كَـراءٍ، مَضَـلّة *** تحاولُ سلمى أن أهابَ وأحصَـرا

وكيف تُرَجّيها، وقد حِيـلَ دونهـا *** وقد جاورت حيّاً بتَـيمن مُنكـرا

تبغّـانيَ الأعْـداءُ إمّـا إلـى دَمٍ *** وإما عراض السـاعدين مصـدرا

كأنّ خَـواتَ الرعـدِ رزءُ زئيـره *** من اللاء يسـكن العـرين بعثـرا

إذا نحـن أبردنـا وردت ركابنـا *** وعنّ لنا، من أمرنا، مـا تَيَسّـرا

بدا لك منـي عنـد ذاك صـريمتي *** وصبري إذا ما الشيء ولى فأدبرا

وما أنس مالأشياء لا أنس قولهـا * لجارتها مـا إن يعـيش بـأحورا**

لعلّكِ، يومـاً، أن تُسِـرّي نَدامَـة * علي بما حشمتني يـوم غضـورا**

فغربت إن لم تخبـريهم فـلا أرى * لي اليوم أدنى منك علماً وأخبـرا**

قعيدَكِ، عمرَ الله، هـل تَعلميننـي * كريماً، إذا اسوَدّ الأنـاملُ، أزهـرا**

صبوراً على رزء الموالي وحافظـاً * لعرضي حتى يؤكل النبت أخضرا**

أقـب ومخمـاص الشـتاء مـرزأ * إذا اغبر أولاد الأذلـة أسـفرا**[١٦]

وأما معد يكرب فشاعر ذكر المرأة واشتاق لها، وهو يورد كلاماً عن ريحانه التي تذكر كتب التاريخ انها مطلقته.

هاجَ لك الشوقُ من رَيحانَـة الطَّرَبـا * إذ فارقتـكَ وأمسـت دارُهـا غُرُبـا**

مازلتُ أحبسُ يـومَ البَـين راحلتـي * حتى استمرُّوا وأذرَت دمعَها سَـرَب**[١٧]

وتتوارد الذكريات عليه:

والغانيـات يقـتلن الرجـال إذا * ضـرجن بـالزعفران الـريط والنقبـا**

مـن كـل آنسـة لـم يغـذها عـدم * ولا تشـد لشـيء صـوتها صـخبا**

إن الغـواني قـد أهلكننـي وأرى * حبـالهن ضـعيفات القـوى كـذبا**[١٨]

ولعل صفي بن الأسلت قد اقتصر في ديوانه على ذكر محاسن المرأة دون أن يظهر لها دور في حياته:

رقود الضحى صفر الحشى منتهى المنى * قطوف الخطى تمشي الهوينـا فتبهـر**

خفيضة أعلـى الصـوت ليسـت بسـلفع * ولا نمـة خراجـة حـين تظهـر**

ويكرمنهـا جاراتهـا فيزرنهـا * وتعتـل عـن إتيـانهن فتعـذر**

ولـيس بهـا أن تسـتهين بجـارة * ولكنهـا مـن ذاك تحيـا وتحصـر**

وإن هـــي لـــم تقصـــد لهـــن أتينهـــا نـــواعم بيضـــا مشـــيهن التـــأطر[١٩]

***

بقيت المرأة لها من الحضور في شعر الفرسان ما يظهر شغفه بها، وحرصه علـــى نيل رضاها والتعب والسهر من أجل ذلك، تلك التي يقاتـــل منأجـــل راحتهـــا، ويشـــهدها معاركه، ويذكرها أوقات شدته وتعبه كل ذلك مرتبط بفروسيته وقتاله لكنه يأوي في وعيه ولا وعيه لذاك الكائن الذي يشاطره الحياة ويشاطره المعاناة والألم، ولعل العلامة الأبـــرز في ذلك أن المرأة كانت أكثر من مجرد زوجة أو حبيبة، لتكون المشاطرة له فـــي حياتـــه والمعينة له والتي يسعد بها بعد أيامه العسكرية التي تعج بالقتل والموت والويلات .

Abstract

Semiotic of beloved women at knights poets in the pre – Islamic era

Search for publication in the annals of the Faculty of Arts , Arabic Department- Ain Shams Univirsity

By Abdel Hamid Mostafa Mortaja

Women occupied an exceptional place in the Pre-Islamic poetry. This was reflected through the mirror of literature. Women existed in all types of poetry. Yet they had a unique presence in the poetry of knights poets.

In his study, the researcher tackles the semiology of the beloved woman in knights poetry. The study traces the meaningful signs used by knights poets on talking about women in a unique manner that matches the distinctiveness of their language and poetic diction. Woman was the witness of their heroism as well as the partner and the beloved. She shared with man his spiritual and materialistic presence, and so he was ready to take adventures for her sake and with her love. She, thus, occupied a big space of his life and this was reflected in his poetry.

Through the semiotic approach, the researcher seeks to trace such signs which referred to women to study and analyze them in a bid to decode such signs and reach their meaning and core in the light of the semiotic approach.

الهوامش

(١) ديوان عنترة ابن شداد، ص(١٢٢)
(٢) ديوانابن معد يكرب، ص(١٣٢)
(٣) ديوان ابن الطفيل، ص(١٠٠)
(٤) ديوان عنترة، ص(٢٢٢)
(٥)السابق ص(١٥٢)
(٦) ديوان عنترة، ص(١٢٧)
(٧)عنترة بن شداد ــ الديوان ص١٦١.
(٨) نفسه، ص١٣٤.
(٩)ديوان عنترة ابن شداد، ص١٣٤.
(١٠) نفسه، ص٥٤.
(١١) نفسه، ص١٤٤.
(١٢)ديوان عنترة، ص٢١٦
(١٣) نفسه، ص١٣٤.
(١٤) ديوان عنترة ــ ص٢٠٠.
(١٥) ديوان ابن الطفيل، ص(١٢٢)
(١٦) ديوان ابن الطفيل، ص(١٢٢)
(١٧) ديوان معد يكرب ــ ص٥٦.
(١٨) السابق ــ ص٥٩.
(١٩) ديوان الطفيل ــ ص٢٠٠.